

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس 08-08 : تفسير الآيات -93-118 ، ألم يعرفوا رسولهم .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ : 23-09-1988

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ،
اللهم لا علم لنا إلا ما علمنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما
علمنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ،
واعجلنا من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

من صفات المؤمن أنه لا يستعجل ما أخره الله ولا يستبطئ ما عجله الله :

أيها الإخوة المؤمنون ؛ مع الدرس الثامن والأخير من سورة المؤمنون .
وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا ثُرِيَّنِي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعُلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا تَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفِعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ تَحْنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَصِيفُونَ (96) ﴾ .. هذه الآيات وحتى نهاية السورة
تشبه شيئاً سيحصل ، ومن رحمة الله بنا أنه عرض علينا مشهدأً لما سيكون ، فمن تقريب هذه
الفكرة أن بعض ملوك اليابان أرسل إلى بلاد الغرب طائفةً من الطلاب ليحصلوا تعليمهم العالي
، بعضهم انغمس في اللهو ، وما لا علاقة له بالدراسة ، ولم يحرز النجاح المطلوب ، فلما عاد
إلى بلده شكل ملك اليابان محكمةً ، وحاكم هؤلاء الطلاب وأعدمهم ؛ فلو أنه أرسل وجهاً أخرى ،
وأعلمهم مصيرهم إن لم يدرسو الدراسة المطلوبة فهذا الإعلام المسبق لما سيكون رحمةً بهم .
نحن لو أطلعنا إنساناً يدخن ، أريناه صوراً دقيقةً لآفات الدخان ، هذه الصور من
نوع أننا نطلعه على شيء لابد من أن يصل إليه ، فلو فكر وأحكم عقله في الموضوع لامتنع من
تلقاء ذاته عن شرب الدخان مثلاً .

الآن أمامنا مجموعة آيات تمثل مشهدأً من مشاهد يوم القيمة ، هذا المشهد يبين
وضع المذنب المقصّر ، وكيف أن النار تلحف وجهه ، وكيف يقول وهو يتلقى العذاب ، وما هي
أمنياته ، فهذه المشاهد لابد من أن يصل إليها كل كافر ، فقد عرضها ربنا في وقت مبكر ،

ونحن في الدنيا رحمةً بنا ، يقول الله سبحانه وتعالى يُعَلِّمُ النبي عليه الصلاة والسلام كيف يدعو ربَّه : ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي هؤلاء الكُفَّار يتوعَّدهم الله سبحانه وتعالى بالهلاك ، فيا رب إذا أريتني بأم عيني هلاك الكفار فلا تجعلني بينهم ، لا تجعلني منهم ، اجعلني بعيداً عنهم لئلا يُصيّبني ما توعدتهم به .. ﴿ إِمَّا تُرِيَنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ الإنسان أحياناً بداع من رغبته قد يكون له قريب ، قد يكون له صديق منحرف ، آكل المال الحرام ، معتمٍ ، مغتصب ، له انحرافاته الخطيرة ، ويزداد قوًّا ، ومتَّعَةً ، وشأنًا و .. و .. فالإنسان يقول : يا رب ما تفسير هذه القصة ؟ ألا تعاقبه ؟ اطمئن ، لابد من أن يعاقبه الله عزَّ وجلَّ ؛ إن عاجلاً أو آجلاً ، فإياك أن تتسرع في طلب العقاب ، ربنا عزَّ وجلَّ يقول :

قُنْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ اظْهُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)

سورة الأنعام

هذه (ثم) للتراخي ، للترتيب على التراخي ، وفي آية ثانية :

قُنْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69)

سورة النمل

ربنا سبحانه وتعالى إما أن يبطش بالكافر مباشرةً بعد انحرافه ، وإما أن يؤخِّره لحكمة بالغة ، فأنت أيها المؤمن لا تستعجل عقاب الله سبحانه وتعالى ، إما أن يأتي وتراء رأي العين ، وإنما ألا يأتي ، أما هو لابد من أن ينزل الله عقابه بالكافر ، إن لكل سيئة عقاباً ، إن لكل حسنة ثواباً ، فالإنسان أحياناً يرى شخصاً منحرفاً ، معتمداً ، ظالماً ، يُسْرُعُ الله سبحانه وتعالى ويعاقبه عقاباً أليماً ، ويبطش به ، هذه تُعطِّيها تلك الآية : ﴿ قُنْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وأحياناً أخرى قد ينحرف الإنسان ، وقد يطغى ، وقد يغوي ، وقد يأخذ ما ليس له ، وقد يعتدي ، وقد يغتصب ، وقد يستعلي ، وقد يتکبر ، والله سبحانه وتعالى يُرْخِي له الحبل ، ولكنه إذا أخذه لم يُفْلِثْه ..

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12)

سورة البروج

فأنت أيها المؤمن لا ينبغي أن تتمنى ، ولا أن تنتظر ، ولا أن تترقب ، ولا أن تستعجل ، من صفات المؤمن أنه لا يستعجل ما أخْرَه الله ، ولا يستبطئ ما عَجَّله الله سبحانه وتعالى ، أنت عبد ، فالله سبحانه وتعالى يُعَلِّمُ النبي عليه الصلاة والسلام ، يعلمه أن يدعو بهذا الدعاء قال : ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) ﴾ أي يا رب إذا أردت أن تُنْزِل عقابك بهؤلاء المنحرفين لا تجعلني بينهم لئلا يُصيّبني ما يصيّبهم ، وطبعاً هذا تحصيل حاصل ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَا مِنَ الْغَمِّ وَكَذِلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

سورة الأنبياء

قدرة الله لا يعترىها عجزٌ :

﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ .. أي هذا الوعد الإلهي كأنه واقع ، ولكن كما يقولون قضية زمن .. ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ الإنسان قائم بالله عز وجل ، لو أن الله سبحانه وتعالى قطع عنه الإمداد لحظة واحدة لأصبح جنة هامدة ، لو أنه جمَّد نقطةً من دمٍ في بعض شرايين دماغه لأصبح مشلولاً ، في مكان آخر أصبح مجنوناً ، في مكان ثالث لقد السمع ، في مكان رابع لقد البصر ، في مكان خامس لقد الذاكرة ، فالإنسان ضعيف .

أخ كريم توفيق - رحمة الله تعالى - خرج من معمله إلى بيته لم يعرف أين بيته ، بقي ساعةً ونصف يجوب في سيارته أطراف المدينة إلى أن ذهب إلى بيت ابنته قال له : يا بني أين بيتي ؟ يوجد فقد ذاكرة كلي ، وقد ذاكرة جزئي ، فالإنسان تحت الطاف الله عز وجل ، أي جهاز ، أي غدة ، أي مكان في جسمك محتمل يصير فيه نمو عشوائي - مرض خبيث - محتمل يصير قصور مفاجئ في وظيفة الكليتين ، انتهى ، أماه متابع لا حصر لها ، فالإنسان قيامه ، دماغه ، قلبه ، شرايينه ، رئاته ، كلوياته ، معدته ، أمعاؤه ، عضلاته ، عظامه ، ذاكرته ، عقله ، بيد الله عز وجل ، أهله ، أولاده ، ماله كل شيء بيد الله عز وجل .

من صفات المؤمن مقابلة السيئة بالإحسان :

﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .. هذا حال المؤمن يُقابل الإساءة بالإحسان .. ﴿ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، يوجد آية أخرى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ (34) ﴾

سورة فصلت

أحد الأصحاب الكرام تكلم معه رجل بكلام مُقذع فقال ببساطة وبهدوء : يا أخي إن كنت مخطئاً غفر الله لي ، وإن كنت أنت غفر الله لك .. ﴿ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ تَحْنُ أَغْلُمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ ..

وَسَارَعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَهَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)

يجب أن تَكْنُظُمْ غِيظَكَ ، وَأَنْ تَعْفُوْ عَنِ النَّاسِ ، وَأَنْ تُحْسِنْ إِلَيْهِمْ .

الله تعالى أعلم بالخلق كلهم :

﴿ تَحْنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ .. هؤلاء المعارضون ، هؤلاء المشككون ، هؤلاء الجاحدون الذي يصدون عن سبيل الله ، يحيكون لك ما يحيكون ، يدبرون ما يدبرون ، يمكررون ما يمكررون ، هؤلاء نعلمهم نحن ، أعلم بك منهم ، أي كفاك طمأنينةً أن الله يعلم ما يفعلون ، أن الله محيط بأفعالهم ، محيط بمكرهم ، محيط بكدهم ، يد الله فوق أيديهم ﴿ تَحْنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أي بما يصفونك يا محمد ، أنت رسول ، ويصفونك لأنك لست برسول ، معلمٌ مجنون ، ساحر ، كاهن ، شاعر .. ﴿ تَحْنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) ﴾ .

الاستعاذه بالله لتلافي وسوسه الشيطان :

﴿ وَقُلْ رَبِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) ﴾ الهمز بعضهم قال : الوسوسة ، وبعضهم قال : ساعة الغضب التي يُصْبِحُ فيها الإنسان كالحيوان بداعٍ من وساوس الشياطين ﴿ وَقُلْ رَبِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّي أَنْ يَخْضُرُونَ (98) ﴾ .. ليس للإنسان من طريقة يتلافي فيها وساوس الشياطين إلا أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، هذه قل : أَعُوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هذه أجدى دواء للوسوس ، كَلَّما نابك وسوسه قل : أَعُوذ بالله من الشيطان الرجيم ، اقرأ المعوذتين ..
قل أَعُوذ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ
الْفَقَاثَاتِ فِي الْغَمَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)

قل أَعُوذ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4)
الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

الاستعاذه بالله ، طبعاً لا يكفي أن تقول بسانك : أَعُوذ بالله ، الأمر أعقد من ذلك ، لابد من أن تلتتجئ إلى الله ، لابد من أن تقبل عليه ، لابد من أن تحتمي بجنابه ، لابد من أن تستجير به ، إذا فعلت ذلك أجارك الله ، وأعادتك ، وأنقذك ، وأغاثك .

سُكُراتُ الْمَوْتِ مَشَهُدٌ مِّنْ مَّا شَاهَدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

أما مشاهد يوم القيمة فقد بدأت الآن ، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ بعضهم قال : إن الإنسان إذا جاءه الموت لابد من أن يعرف مقامه في الآخرة ، إما أن يرى مقامه في جنة عرضها السماوات والأرض ، وإما أن يرى مكانه في النار ، في دركات النار ، لذلك حينما يُشرِّفُ الإنسان على الموت يعرف مكانه في الآخرة ، إما في جنة يدوم نعيمها ؛ أو في نار لا ينفد عذابها ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ .. بعضهم : **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُبَيَّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (8)

سورة الجمعة

تقرون منه .. أي كأنه يلحقكم .. فإنَّه ملائكم ، الإنسان أحياناً يفاجأ ، يكون متوقعاً أن يموت من هذا المرض ، يعني بصحته عناء بالغة ، فإذا هو يفاجأ بأنه يموت بحادث ، وهذا الشيء وقع كثيراً ، فالإنسان لا يعرف كيف يموت ، يا ترى يموت بمرض ؟ بحادث ؟ الله أعلم ..

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب ألقى في الله مصرعي

* * *

من لم يمُت بالسيف مات بغيره تنوَّعت الأسباب والموت واحد

* * *

أجمل ساعة في حياة المؤمن ساعة لقاء ربه :

حينما يكون الإنسان مع الله عز وجل فهو في سعادة ما بعدها سعادة ، النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الغزوات تقدَّم أحد أصحابه ، واسمُه الربيع فقال : أين الربيع ؟ ندب أحد أصحابه ليبحث عنه في أرض المعركة ، أحد أصحاب النبي الكريم توجَّه إلى أرض المعركة يبحث عن الربيع بين القتلى والجرحى ، فإذا هو بين القتلى لكنه لم يمت بعد ، أي في النزع الأخير ، فقال : إن النبي عليه الصلاة والسلام يُفرِّنك السلام ، وقد بعثي أبحث عنك ، فهل أنت يا ربيع بين الأموات أم بين الأحياء ؟ فقال الربيع : إنني من الأموات ، ولكن أقربِي رسول الله مني السلام ، وقل له : جزاك الله علنا خيراً ما جزى نبياً عن أمته .

هذه حالة ، هو في أرض المعركة يلقى النزع الأخير وحاله من أسعد الحالات ، فالإنسان ليكن عمله في الدنيا عملاً طيباً بحيث لو جاءه الموت قال كما قال سيدنا بلال رضي الله عنه حينما قالت له ابنته : وَا كرْبَتَاهْ يَا اُبْتَه ، قال : لَا كرْبَ عَلَى أَبِيكَ بَعْدَ الْيَوْمِ غَدَّاً نَلَقِيَ الْأَحَبَّةَ ؛ مُحَمَّداً وَصَاحِبَهُ .

أنا الذي أتصوره أن أجمل ساعةٍ في ساعات حياة المؤمن حينما يلقى الله عزّ وجل .. بل الرفيق الأعلى .. ينبغي أن يكون هذا اليوم هو اليوم الموعود ، هو اليوم المنتظر ، لذلك قالوا : الموت تحفةُ المؤمن .

تعريف اليقين :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ ﴾ .. قال ربنا عزّ وجل :
وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

سورة الحجر

اليقين هو الموت ، ولم يقل الله عزّ وجل : واعبد ربك حتى يأتيك الموت ، قال :
وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ بمعنى أن الموت سُميّ يقيناً لتيقن وقوعه .. كل مخلوقٍ يموت ،
ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت :
الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر والنهار مهما طال فلابدّ من نزول القبر

* * *

لذلك البطل هو الذي يُعدّ لهذه الساعة الغدة ، هو الذي يعمل من الصالحات ، هو الذي يستقيم على أمر الله ، هو الذي يتعرّف إلى الله في الرّحاء ، هو الذي يحضر مجالس العلم ليتعرف إلى الله ويطبق ما فيها من قواعد ، من شرائع ، من مواعظ ، من حكم ، من أوامر ، من نواهٍ .

وسُميّ الموت يقيناً لشيء آخر ، هو أن كل شيء سمعته في الدنيا يصبح عند الموت يقيناً ، نقول الآن : يوجد جنة ، ويوجد نار ، ويوجد حساب ، ويوجد صراط ، ويوجد عذاب ، ويوجد ملائكة ، ويوجد زيانية ، ويوجد جهنّم ، هذا الكلام كله الذي يقوله الناس في الدنيا عند الموت تصبح هذه الأخبار حقائق ، سمي الموت يقيناً لتيقن وقوعه ، وسمي الموت يقيناً لأن كل شيء فيه يصبح يقيناً :

اَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)

سورة الإسراء

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ عِطَاءَكَ فَبَصَرْكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

نَدَمَ الْكَافِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَمَنَ الرَّجْوُ إِلَى الدُّنْيَا لِيَصْحُحَ خَطَأُهُ :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ .. نَدَم ..

أَنْ تَقُولَ نَفْسُكَ يَا حَسَرَاتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56)

سورة الزمر

يا ليتي أعود إلى الدنيا فأستقيم على أمر الله ، يا ليتي أعود إلى الدنيا فأعمل الصالحات ، يا ليتي أعود إلى الدنيا فأتعلم كتاب الله ، يا ليتي أعود إلى الدنيا فأجعل بيتي إسلامياً كما أراد الله عز وجل ، يا ليتي أعود إلى الدنيا لأحرر دخلي من الحرام ، يا ليتي أعود إلى الدنيا لأنفق المال فيما يرضي الله .. ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِيٌّ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ تركت أموالاً يا رب ، لعلي أعود إلى الدنيا فأنفقها في طاعتك ، تركها لأولاده ، وأولاده صرفوها وأنفقوها في معصية الله ، أي أغلب الظن أن الإنسان إذا ترك أموالاً طائلة ، ولم يترك ذريعة صالحة أغلب الظن أن هذه الأموال تتحقق على المعا�ي ، يصف المؤمن حينما يوجد في النعش بأن روحه ترفرف فوق النعش وتقول : " يا أهلي يا ولدي ، لا تلعن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حل وحرم ، فأنفقته في حله وفي غير حله ، فالهباء لكم ، والتبعية على " .. ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ يقول بعضهم : إن الميت يخاطب الملائكة الذين قبضوا روحه ، وكلمة رب اعترافية ، كما لو أن الأبأخذ ابنه ليضربه فالطفل ينادي أمه .. ينادي إنساناً آخر يظن أنه سيخلصه .. قال : رب أي يا رب ، أرجعني إليها الملائكة كما كنت في الدنيا .. ﴿ لَعَلِيٌّ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ .. لعل هذا المال الذي تركته أنفقه في طاعة الله ، لعل هذا البيت الذي تركته أسكنه من يرضي الله عز وجل - طبعاً في دخول كبيرة جداً من البيوت ، لكن لا ترضي الله عز وجل ، يقول لك : كل يوم ثلاثة آلاف ليرة ، لو أجرته إلى مؤمن - لكن يوجد دخول لا ترضي الله عز وجل ، يوجد تجارات لا ترضي الله ، يوجد حفلات لا ترضي الله ، يوجد سهرات لا ترضي الله .

كُلُّ إِنْسَانٍ رَهِينٌ عَمَلَهُ إِنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِيٌّ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ .. كلا أدلة نفي ورد في ، هذا لن يحصل ، هذا بعد فوات الأوان ، هذا لن يكون .. ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ أي هذه

الكلمة التي قالها لا تقدُّم ولا تؤخِّر ، ولا تنفع ، ولا تجدي ، وليس لها أي مفعول ، إنها كلمة هو قائلها ، إذا ساقوا مجرماً إلى الإعدام بعد أن صدر الحكم بإعدامه ، وتصدق الحكم ، وهو مرتكب جريمة ، إذا قال : خاصوني ، سامحوني ، اتركوني ، نقول له : هذه الكلمة لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تجدي ، ولا تفعل شيئاً ، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ فالإنسان لا ينبغي أن يهمِّل أمر دينه في الدنيا حتى يأتي عليه يوم يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ويقال له : ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ هذه هي المشكلة ، نحن الآن في الحياة الدنيا ، ومadam القلب ينبض فالباب مفتوح ، باب التوبة مفتوح ، باب الرقي مفتوح ، باب المغفرة مفتوح ، باب الإصلاح مفتوح ، كل شيء مفتوح الآن ، حتى إذا جاء الموت أغلقت الأبواب ، وخُتمت الأعمال ، وجفت الصحف ، ورفعت الأقلام ، وانتهى كل شيء ، وأصبح الإنسان رهين عمله ..

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَسْنَأَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41)

سورة المدثر

حياة البرزخ :

﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمٍ يُبَعَّثُونَ﴾ .. هذا البرزخ ..
النَّارُ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)

سورة غافر

من ستة آلاف عام ، وفي كل عام يوجد ثلاثة وخمسة وستون يوماً ، وكل يوم مرتان ، يعرضون على النار .. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ هذا هو البرزخ ، البرزخ إما أن يكون روضة من رياض الجنة ، وإما أن يكون حفرة من حفر النار ، الإنسان بين الموت وبين يوم القيمة هناك مرحلة تسمى : البرزخ ، لكن بعضهم قال : يا ترى ومن ورائهم أم ومن أمامهم ؟ المفترض أن البرزخ من أمامهم ، الآن مات وأمامه بربخ ، قال بعضهم : كلمة من ورائهم تعني الإحاطة ..

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَثُ أَنْ أَعْيَبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصِّبًا (79)

سورة الكهف

أي محاطين ، بعد أن يموت الإنسان لا يوجد حل آخر ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ أي محيط بهم بربخ إلى يوم يبعثون .

العلاقة النسبية في الدنيا فقط كي يكتسب الإنسان بها العمل الصالح :

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ .. أي هذه النفوس التي خلقها الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ أرادها جعل نظام الأسرة ، جعل نظام الزوجين ، هذا أبو ، وهذه أم ، وهؤلاء أولادهما ، الأولاد يتزوجون ، هذا صهر ، وهذا ابن أخي ، وهذا ابن اخت ، وهذه عمة ، وهذه حالة ، هذه العلاقة النسبية جعلها الله في الدنيا كي يكتسب الإنسان بها العمل الصالح ، يكون الطفل صغيراً يحتاج إلى رعاية ، إلى عناية ، إلى توجيه ، إلى تربية ، فأن يكون للإنسان أبو ، وأم ، وزوجة ، وأخ ، وأخت ، وعم ، وخال ، وعمة ، وخالة ، وابن أخي ، وابن اخت ، وابن خالة ، وابن عمة ، هذه العلاقات النسبية جعلها الله في الدنيا كي تتوصل ، كي تترافق ، كي تكسب الأعمال الصالحة ، كي يُعين الآباء حينما يكبر ، وكيف يُعين الآباء حينما يكون صغيراً ، لكن انتهى العمل بقي الجزاء ، لذلك ليس في يوم القيمة أنساب ، يبدو أن السيدة عائشة رضي الله عنها سالت النبي عليه الصلاة والسلام قالت : أتعرف بعضاً يوم القيمة ؟ لا يا أم المؤمنين ، إن أحداً لا يعرف أحداً يوم القيمة .. لكن فيما سوى هذه الموضع الثلاث ؛ على الصراط ، وإذا الصحف نشرت ، عند الميزان ، في هذه المواقف الثلاث لهؤلء الموقف لا يعرف أحداً يوم القيمة .. وفيما سوى ذلك ربما وقعت عين الأم على ابنها ، تقول له : يا بني جعلت لك صدري سقاء ، وبطني وعاء ، وحجرني وطاءً فهل من حسنةٍ يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول : يا أماه ليتني أستطيع ذلك ، إنما أشكوك مما أنت منه تشکين .. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لا يوجد أنساب ، ولا يوجد تساؤل ، هنا التساؤل بمعنى السؤال ، الإنسان أحياناً يسأل آباء أن يعطيه مالاً ، والأب أحياناً يسأل ابنه أن يعطيه مالاً ، والأخ يسأل أخيه بيتاً ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ .

الناس يوم القيمة فريكان :

1 . من ثقلت موازينه :

﴿فَمَنْ تَقْلَثُ مَوَازِينُهُ﴾ .. أعماله الطيبة كثيرة ، له استقامته في الدنيا ، له أعمال الخير ، يدل على الخير ، يتصدق بماله ، يدل الضلال في أرض الضلال ، يفرغ من دلوه في إناء المستنقى ، يميط الأذى عن الطريق ، يعود للمريض ، ينفق من ماله ، يرد لهفة الملهم ، مثل هؤلاء الأشخاص موازينهم ثقيلة ، دعا إلى الله ، جعل الله هداية بعض الناس على يديه ،

طبعاً هذه الدعوة تحتاج إلى وقتٍ ، وإلى جهدٍ ، وإلى صبرٍ ، وإلى تحملٍ ، طبعاً هذه الأعمال الطيبة تجعل موازينه ثقيلة : ﴿فَمَنْ تَقْلِثُ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ي أفلحوا في الدنيا ، وحققوا الهدف من خلقهم ، وفازوا بها ، وجعلوها جسراً إلى الآخرة .

2. من خفت موازينه :

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ .. أكبر خسارة أن تخسر نفسك .. رأس مالك نفسك ، فإذا خسرتها خسرت كل شيء ، وإذا ربحتها بحث كل شيء ، تربح نفسك إذا عرفتها بربها ، تربح نفسك إذا دلتها على الله عز وجل ، إذا ألمتها سبيل الاستقامة ، إذا حملتها على فعل الخيرات ، تربح نفسك ، وإلا تخسرها ، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أعماله قليلة ، كل وقته وجهه لمصالحة ، لكسب المال ، للتمتع بالدنيا ، لتوسيعة البيت ، لتزيينه ، للذهاب إلى النزهات ، لإقامة الولائم ، للانغماس في الملاذات ، لا يعني بأمر الله كثيراً ، لا يهتم أكان في طاعة أم في معصية ؟ أكان فيما يرضي الله أم فيما يسخطه ؟ لكن الذي يعنيه أنه يحقق رغبته ، يلبي شهوته ، يُمتع نفسه ، يقول لك : الدنيا لا يوجد فيها شيء ، خذ منها قدر ما تستطيع ، هكذا شعار بعض الناس ، وكما قال الشاعر :

فإن كنت لا تستطيع دفع مني
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

* * *

متع نفسك ، الآن أنت شاب ، من الآن ل يوم الله يفرجها الله ، بعض الناس هكذا ﴿فَمَنْ تَقْلِثْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ حَالِدُونَ (103)﴾ الإنسان يخسر بيته أحياناً ، البيت يحترق ، يخسر سيارة ، أحياناً يخسر رأس ماله كله ، أحياناً يخسر أولاده ، هناك مصائب كثيرة ، لكن رأس مالك أنت ، أنت رأس مالك ، فإذا خسرت نفسك أعد الله لك حياة أبدية فخسرت هذه الحياة الأبدية وكان المكان في عذاب أليم ، هذه أكبر خسارة ، لذلك : عَنْ شَدَادٍ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ،
وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي .

الترمذني : حكم المحدث : صحيح

قبح الكفار والنار تلفهم :

﴿ وَمَنْ حَفِظَ مَوَازِينَهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) ॥
 تَلْفُحُ وُجُوهِهِمُ النَّارُ ॥ .. تأتيه لفحة من لهيب النار : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوْنَ ॥ إِذَا نَظَرَتِ إِلَى
 رَأْسِ غَنْمٍ مَشْوِيٍ تَرَاهُ مَكْثِرًا ، أَسْنَانَهُ ظَاهِرَة ، حِينَما احْتَرَقَ جَلْدُهُ ، انْكَمَشَتْ عَضْلَاتُ جَلْدِهِ فَكَثَرَ
 عَنْ أَنْيَابِهِ ، مَعْنَى كَالْحُوْنَ : حِينَما تَأْتِيهِ لفحةُ النَّارِ يَنْكَمِشُ جَلْدُهُ فَتَظَهَرُ أَسْنَانُهُ بِشَكْلٍ قَبِيحٍ : ॥
 تَلْفُحُ وُجُوهِهِمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوْنَ ॥ . ॥

عِتَابُ اللَّهِ لِلْكَافِرِ :

اسمعوا العتاب الإلهي : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَيَّاتِي تُثْلِي عَلَيْكُمْ ॥ آيات القرآن ألم تكن تتلى علينا ؟ بل والله ، تتلى علينا صباحاً ومساءً ، القرآن أليس بين أيدينا ؟ ألا نسمعه صباح مساء ؟ ألم نسمع تفسيره ؟ ما موقفنا منه ؟ ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَيَّاتِي تُثْلِي عَلَيْكُمْ ॥ الآيات الكونية أليست ظاهرة جلية ؟ هذه الشمس من أوقادها ؟ وهذا القمر من جعله في هذه المعراج والموقع ؟ وهذه الأمطار من أرسلها ؟ وهذه الرياح من صرفها ؟ وهذه البحار من أوجدها ؟ وتلك الجبال من أقامها ؟ وهذه الحيوانات من خلقها ؟ وهذا الطعام الذي تأكله من أعدك ؟ ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَيَّاتِي تُثْلِي عَلَيْكُمْ ॥ عندنا آيات كونية ، ويوجد آيات قرآنية ، فالآيات الكونية تتلو نفسها علينا صباح مساء ، هذا كأس الماء هو آية من آيات الله ، طفلك الذي أمامك آية من آيات الله ، الفاكهة التي تأكلها آية من آيات الله ، الهواء الذي تستنشقه آية من آيات الله ، وأيات القرآن الكريم : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَيَّاتِي تُثْلِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ॥ يقول لك : أخي هذا القرآن للأموات وليس للأحياء ، يقرأ على الأموات ، وفي مناسبات الموت ، الآن دعنا في سرور ، إذا ذكرت لهم آية أو حديثاً عن الآخرة تشاءموا ، دعنا في سرور . ॥

إِيَّاثُ الصَّالِ شَهُوتُهُ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبْتُ عَلَيْنَا شِغْوَثَنَا ॥ .. الشِّغْوَةُ أُضِيفَتْ إِلَيْهِمْ ، أَيِّ الشِّغْوَةُ هُنَّ الشَّهُوَةُ ، سَمَاها اللَّهُ شِغْوَةً لَأَنَّ الشِّغْوَةَ تَؤْدِي إِلَى الشِّغْوَةِ " أَلَا يَا رَبُّ شِهْوَةِ سَاعَةٍ أُورِثْتَ حَزَنًا طَوِيلًا " .. فَلَأَنَّ هَذِهِ الشِّهُوَةُ تَؤْدِي إِلَى الشِّغْوَةِ سَمَاها اللَّهُ شِغْوَةً : ﴿ غَلَبْتُ عَلَيْنَا ॥ أَيِّ آثَرْنَا شَهْوَاتِنَا عَلَى طَاعَةِ رَبِّنَا ، نَحْنُ مُخَيَّرُونَ ، اخْتَرْنَا شَهْوَاتِنَا عَلَى طَاعَةِ رَبِّنَا ، آثَرْنَا حَظْوَظَ أَنْفُسِنَا ، آثَرْنَا المُتَعَّدَ الرِّحْيَصَةَ يَا رَبُّ ، هَكَذَا .. ﴿ غَلَبْتُ عَلَيْنَا شِغْوَثَنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ॥ لَمْ نَبْحُثْ عَنِ الْحَقِّ ،

الحق كان جلياً ، كان واضحاً ولكن تعامينا عنه ، ما بحثنا عنه ، لم نعهده ، بحثنا عن الدنيا ، عن الدرهم والدينار : ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) ﴾ .

الله تعالى سخر للضال كل شيء ليعود إلى الطريق المستقيم ولكنه أبى :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَذْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) ﴾ .. إذا طلب منك طلباً لا يعقل أن يتحقق ، لا تقول له : لا ، بل تقول له : اخرج من هنا : ﴿ قَالَ اخْسُنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ..
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا عِبِّينَ (38)

سورة الأنبياء

ما هذه أخرجا منها ؟ كنتم في الدنيا وعمرتم فيها عمراً كافياً :
وَهُمْ يَضْطَرِّبُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ أَوْلَمْ تُعَمِّرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ
مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ الدَّنَيْرُ فَذُوقُوا فَمَا لِظَالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37)

سورة فاطر

عمرتم في الدنيا ثمانين عاماً ، سبعين عاماً ، ستين عاماً ، ستين ربيعاً ، ستين
خريفاً ، ستين صيفاً ، ستين شتاء ، ستين مرة أكلت فواكه الصيف ، وستين مرة فواكه الشتاء
أكلتها ، ورأيت الرياح ، والأمطار ، والثلوج ، والربيع ، والخريف ، وجاءك أولاد ، وكبروا أولادك
، وزوجتهم ، وجاءهم أولاد ، وصرت جداً ، عمرتم ما يكفي للتذكرة .. ﴿ وَجَاءَكُمُ الدَّنَيْرُ ﴾ الله
عَزَّ وجل أرسل الأنبياء ، وأنزل القرآن الكريم ، وسخر العلماء ، وأرسل بعض المصائب حتى
يُذَكِّرنا ، وجعل الشيب ، جعل ضعف البصر ، وضعف السمع ، وضعف القوى ، يقول لك : أنا
لم أكن هكذا ، كنت أنشط من ذلك ، طبعاً ربنا عَزَّ وجل بأسلوب لطيف قال لك : يا عبدي
اللقاء قُرُب فانتبه ، هيئ نفسك .

الضال إنسان وصل مع ربه إلى طريق مسدود :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبْتَ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَذْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) ﴾ .. هذا كلام لا يُجذب .
تكلمنا من درسين سابقين : لا تصل إلى طريق مسدود ، هذا الطريق مسدود ، قل :
﴿ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ ، وقل : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلَّي أَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ ..

وقل :

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِّعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا تُرْدُ وَلَا تُكَبِّ بِإِيمَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)
سورة الأنعام

وقل :

أَنْ تَقُولَنَّ يَأْسًا يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56)
سورة الزمر

وَيَوْمَ يَعْصُضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدِيهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَتَحْذَثُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27)
سورة الفرقان
هذا الكلام لا يجدي : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَذَّنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسُلُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108)﴾ أي ابتعدوا ، ولا تكلمون .

سخرية الكفار من المؤمنين في الدنيا ولكن البطولة من يضحك آخرًا :

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا أَمَّا فَاعْفُرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرٌ الرَّاحِمِينَ (109) فَأَتَخَذْنُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَسْوَكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110)﴾ ..
أحياناً ينشأ الشاب في طاعة الله فيسخر منه إخوانه ، أصدقاؤه ، أقاربه ، قد يسخر منه أبوه وإخوته في البيت ، يقولون له : تشيخ ، لم يعد يفهم شيئاً ، ابتعد عن سهراتنا ، طمس قلبه بالدين ، لم يعد يرى شيئاً ، ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ كنتم تظنون أنكم أنتم الأذكياء وهم الأغبياء ، كنتم تظنون أنكم أنتم الرابحون وهم الخاسرون ، كنتم تظنون أنكم أنتم الفائزون ، وهم المخفون ، كنتم تظنون أنكم أنتم الذين تعرفون كيف تكون الحياة وهم لا يعرفون ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا أَمَّا فَاعْفُرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَأَتَخَذْنُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَسْوَكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110)﴾ كانت السخرية عليهم قد أنسكم ذكر الله عز وجل ، كنتم معنيون بالسخرية منهم ، تمضون أوقاتكم في الحديث عنهم ، يقول لك : محدود ، تتحدثون عن ورعيهم على أنه غباء ، تتحدثون عن إحجامهم عن مباحث الدنيا على أنه ضيق أفق ، تتحدثون عن خوفهم من الله عز وجل على أنه حالة مرضية ، تتحدثون عن استقامتهم على أنه قابضها ، إذا شخص مستقيم خاف أن يأخذ ورقة ليست له : أخي قابضها زيادة .. ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وهذا يحصل ، المؤمن دائمًا أهل الكفر والضلالة والبغى والعدوان يسخرون منه ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَرِيَّهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111)﴾ هؤلاء الذين انغمسو في ملذات الدنيا إلى قمة رؤوسهم كانوا خاسرين ،

هؤلاء الذين أقبلوا على الدرهم والدينار ، وعبدوا شهواتهم من دون الله هم الخاسرون ، لذلك ربنا عزّ وجلّ قال :

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يُضْحَكُونَ (34)

سورة المطففين

الأحمق من يضيع الآخرة الأبدية من أجل أيامٍ معدوداتٍ في الدنيا :

﴿ قَالَ كُمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَّ سِنِينَ ﴾ .. ربنا عزّ وجلّ يسأل ، هذا سؤال دقيق جداً ، لو فرضنا سمعت شخصاً دخل إلى بيت لكي يسرق ، ثم تقابلاً بصاحب البيت ، فنشبت معركة بينهما فقتل صاحب البيت ، فأخذ للمحاكمة ، حكم عليه بالإعدام ، ما هو المبلغ الذي سرقه ؟ يقول لك : والله إنه خمسون ليرة ، هل من المعقول أن يضحى بحياته كلها من أجل خمسين ليرة ؟ ما أغباه ! ومهما كان المبلغ كبيراً فإنه خاسر ، هذه الآخرة الأبدية ، هذه الحياة السرمدية ، هذه السعادة الكبرى ، هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، ضيعتموها من أجل أيامٍ معدوداتٍ في الدنيا : ﴿ قَالَ كُمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَّ سِنِينَ ﴾ ..

الوقت أثمن شيء يملكه الإنسان :

اسمعوا الجواب ، عاش ثلاثة وثمانين سنة : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ، تَمُّرُ الدنيا على الإنسان يوم القيمة وكأنها يوم ، ونحن الآن كل واحد له عمر ، نقول له : يا أخي كم هو عمرك ؟ يقول : ثلث وأربعون ، كيف مضوا ؟ يجيبك : والله البارحة كنت طالباً صغيراً ، الذي في الأربعين من العمر يقول لك : البارحة كنت صغيراً ، والذي في الثلاثين يقول القول نفسه ، والذي في الخمسين كذلك ، في الدنيا تمضي الأيام سريعاً كلمح البصر ، أما في الآخرة كل العمر يمضي وكأنه يوم أو بعض يوم : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَلَشَاءَ اللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ اسأل الملائكة الذين وَكَلُوا بَعْدَ الْأَيَامِ ، يأتي الجواب : ﴿ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاً .. هَذِهِ إِنْ حَرْفٌ نَفِي ، أَيْ مَا لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاً ، أَيْ أَذْهَبْتُمْ طَبِيعَتُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، أَيْ ضَحَّيْتُمْ بِهَذِهِ الْآخِرَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ أَجْلِ أَيَامٍ مَعْدُودَةٍ فِي الدُّنْيَا : ﴿ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لو أنكم تعلمون حقيقة الدنيا لما استهلكتم الوقت في ثُرُّهات الأباطيل ، ولا في سفاسف الأمور ، لو كنتم تعلمون حقيقة الدنيا ، والله الذي لا إله إلا هو حتى المؤمن إذا واجه الموت فإنه سيندم على ساعةٍ مضت لم يذكر الله فيها ، أثمن شيء هو الوقت ، هذا الوقت رأس

مالك ، ما مضى فات والمُؤمَل غيب ولك الساعة التي أنت فيها ، لذلك احرصوا على الوقت ، استهلكوا الوقت فيما يرضي الله عَزَّ وجل :

عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجلٍ وهو يعظه : اغتنِ خمساً قبل خمسٍ : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراugasك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك .

أخرجه المنذري الترغيب والترهيب إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما

هذه الخمس اغتنمها قبل الخمس ﴿ قَالُوا لَبِثْتَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَأَسْأَلِ الْعَادِينَ ﴾

(113) ﴿ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَفْلِمُونَ (114) ﴾ .

أحد أسباب الإيمان باليوم الآخر أن اسم الحق لا يتحقق إلا بعد الموت تحققًا كاملا .

الآن السؤال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثًا ﴾ .. أي هكذا الدنيا فيها قوي وفيها ضعيف ، هذا القوي أكل مال الضعيف وانتهي الأمر ؟ لا يوجد شيء بعد هذا ؟ لا يوجد حساب ؟ لا يوجد جزاء ؟ لا توجد محاكمة ؟ لا يوجد ثواب ؟ لا يوجد عقاب ؟ لا يوجد يوم آخر ؟ هكذا تنتهي الحياة بالموت ولا شيء بعد الموت ؟ هكذا تظنون ؟ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثًا ﴾ فيكم القوي ولا يحاسب ؟ وفيكم الضعيف ولا يعطي حقه من القوي ؟ فيكم الغني الذي يبدد أمواله على شهواته ؟ وفيكم الفقير الذي يبحث عن طعام فلا يجده وهكذا ينتهي الأمر ؟ أحد أسباب الإيمان باليوم الآخر أن اسم الحق لا يتحقق إلا بعد الموت تحققًا كاملا .

محاسبة الناس جميعاً يوم القيمة :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ ﴾ ..
تعالى عن أن يخلق الخلق عبثاً ، تعالى عن أن يخلقنا بلا حساب .
﴿ أَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُثْرَكَ سُدًّا (36) ﴾

سورة القيمة

لا توجد مسؤولية ؟ وعدتها إن سجلت لك هذا البيت باسمك ألا تطلقها ، فلما كتبت لك البيت طلقتها وليس هناك إله يحاسب ؟

إذا جار الأمير و حاجباه
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ
لقاضي الأرض من قاضي السماء

* * *

﴿ قَالَ كُمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَّةَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَلَشَأْلَ الْعَادِينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقْلُمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أي تعالى عن أن يخلق الخلق عبثاً ، لابد من حساب ، لابد من جزاء ، لابد من دينونة ، لابد من أن يقف الناس جميعاً ليحاسبوا عن أعمالهم ، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ .. هذه (لا برهان له به) سماها علماء البلاغة قيداً توضيحاً ، وليس قيداً احترازاً ، أي لا يمكن أن يكون هناك برهان لإله آخر ، لكن ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَ ﴾ من شأن هذه الدعوى الباطلة أنه لا برهان عليها ، ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أحياناً تحاول أن تفهم لتحول قضية يقال لك : هذا الموضوع عند فلان ، وليس في إمكان أحد أن يحلف إلا هو ، فهذا الموضوع الحساب عند الله وحده : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أَخْرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أي سوف يأتي الناس رب العالمين ؛ وسوف يحاسبهم على أعمالهم كلها ؛ إن خيراً فخير ، وإن شرًا فشر ، أي :

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ (26)

سورة الغاشية

﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ الكافر لا يفلح مهما قدم وأخر ، مهما علا ، مهما طغى

وبغي ، فإنه لا يفلح .

اقتران المغفرة بالرحمة :

﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .. يعلمونا ربنا سبحانه وتعالى كيف ندعوه : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ ﴾ المغفرة للسيئات ، والرحمة في التجليات ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

والحمد لله رب العالمين